الرجل صاحب الكلب

قصـــة مصرية : للأستاذ محمود تيمور

حدثني الراوي قائلا :

عندما كنت طالبا في مدرسة الزراعة بالجيزة كنت أتردد في أوقات فراغي على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع النهري يجري بجوارها جدول صغير وتتهدل فوقها أغصان شجرة عتيقة . وكنت أعتبرها حلقة الاتصال بين الحضر والريف أو بين المدنية والحياة الساذجة البدائية . فبينما تكون جالسا في مقعدك البسيط تشرب القهوة في هدوء وتصغي الى خرير الماء وتشم رائحة النبات اذ بك تسمع دوي ترام أو سيارة ويتملى أنفك برائحة البنزين والتراب .

وكان يتردد على هذه القهوة رجل بدين الجسم كروي الوجه بأنف أفطس وعيون صغيرة يلبس بدلا من المعطف جرملة من اللون الأزرق الكالح ويلف رأسه بشال قديم مهلهل . وكنا في ذلك الوقت على أبواب الشتاء . وكنت ألاحظ عليه مظاهر الجريعة . واعتقدت أنه من أرباب المعاشات الفقراء . وأذكر أني لم أذهب الى القهوة مرة واحدة ولم أجده . أراه دائما في ركنه المعهود بجوار باب القهوة منتفخا في جلسته يدخن النارجيله ويحتسي القهوة ويزعق بين فترة وأخرى على الخادم يصدر اليه أوامره المعضة . يصحب معه دائما كلبا أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت . يزعج القهوة بنباحه الثقيل . كان سيده يبالغ في تدليله والاعتناء به . ويكلمه ببعض كلمات انجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله . كام هير جيمي كام هير ماي دير (١)

ولا أدري ما الذي دفعني الى أن أهتم بهذا الرجل وكلبه وأدقق في ملاحظتي اياهما . مع تفوري منهما .

وذهبت مرة الى القهوة فوجدت عويسا ماسح الأحذية يتشاجر معه . وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح وهو منتفخ كالأوداج محمر العين يصفق أمامه بصفقات متوالية . ورأيت الكلب ينبح ماسح الأحذية بشدة ويجذب بأسنانه طرف ثوبه . فتحاشيت التدخل بينهما وقصدت الى مكاني بجوار الجدول ومعي كتاب الزراعة المصرية لأذاكر فيه . وجاء صاحب القهوة فسكت الخلاف وشتم عويسا وأرضى الافندي ببعض كلمات لا تخلو من تملق . وترك الكلب ثوب الغلام وذهب الى سيده فنظر اليه مليا وهو يصبص بذنبه ثم تمدد تحت أقدامه ونام .

وجاء عويس يمسح لي حذائي كالمعتاد فمددت له قدمي في حركة آلية غير ملتفت اليه وانشغل الغلام بالمسح وأنا بالتفكير وبعد برهة خاطبت عويسا ووجهي لا يفارق الكتاب . .

— من يكون هذا؟

فأجابني وهو منهمك في عمله .

— واحد حكيم لا طلع ولا نزل . يدعى أنه كان حكيمباشي في الجيش في الزمن الماضي

— والآن؟

— على المعاش

ثم رفع رأسه الي وقال:

تصور يا بيه أنه يريد أن يعطيني قرش تعريفة واحد في مسح حذائه ووضع شريط جديد له . وأي جزمة هذه التي مسحتها . ربنا لا يوريك أو كذلك ان الورنيش لم يمسها منذ ان كان جنابه في الجيش . .

ولاحظت على الرجل انه يسارقنا النظر فاردت أن أحول مجرى الحديث ولكنني لم استطع اذ كان عويس قد اندفع يقول :

قرش تعريفة واحد نظير مسحة وشريط جديد . أللهم العفو يا سيدي . . هذا خلاف الخدمات التي اؤديها له بدون مقابل . ولو كان شخصا فقيرا لقلنا نخدمه لوجه الله ولكنه رجل عاكم . عاكم تمام .

وسمعت الحكيمباشي يصفق بشدة على الأرض فخفف عويس من حدته وهمس قائلا :

— تصدق بالله، لو ذهبت الى بيته لظننت انك في مزبلة أو مربط بهائم... لم كل هذا والدنيا أخرتها موت . قضك واردم على هذه السيرة . .

وغبت عن القهوة بضعة أيام . وبينما كنت مرة في الترام منهمكا في قراءة البلاغ اذ شعرت بشخص يدخل العربة — وكانت مزدحمة بالركاب — ويحشر نفسه بين الجالسين وسمعت همهمة استياء من كل ناحية . ورفعت بصري لأرى من الداخل فوقع بصري اول وهلة على كلب اسود ضخم بشع الهيئة عرفته على الفور . ورأيت أمام مقعدي الحكيمباشي يمسح وجهه المحتقن المعقد بشدة حرمله على أكتافه ويدفع جاره وهو يدمدم . والتقت أعيننا . وشعرت بأني ابتسم له . وشاهدته يجيبني بحاملة بابتسامة سطحية خاطفة . وبعد لحظات قال لي متدفعا :

— يدفع الواحد منا ستة مليمات لهذه الشركة الملعونة لبحظى بمثل هذه الجلسة المرهقة . نحن آدميون ولسنا بهايم حتى يحشرونا هكذا كأننا في عربة للحيوانات . لماذا لا يزيدون عربة على كل قطار في مثل هذه الاقاوت . أقسم بالله ان سوارس الذي تدفع فيه ثلاثة مليمات فقط أحسن ألف مرة من هذا الترام .

(١) تعال هنا يا جيمي تعال هنا يا عزيزي

فوافقه موافقة تامة . وأخذت أدم له الشركة بدورى . فظهر على وجهه الارتياح وأخـــذ يناقلنى الحديث بلهجة ودية ومن غير تكلف كأنه يعرفنى منذ أعوام . وقال :

ـ لم تحضر الى القهوة منذ أيام

ـ كنت مشغولا جدا . لقد هجمت علينا الدروس .

ـ إيه يا بنى لو كنت معنا فى الجيش لاستصغرت من شأن مشاغلك . . كنت أنا لا أجد الوقت الكافى لاتناول كوب اللبن فى الصباح

ـ حضرتك خدمت فى الجيش مدة طويلة ؟

فأجاب بلهجة متزنة وهو يعبث بسلسلة ساعته .

ـ ٤٥ سنة . . ٤٥ سنة وأنا أعيش فى الخيام وعلى ظهور الجياد . أضمد جروح الجرحى وأعنى بالمصابين . ثم أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقة بمعاش لا يسوى العير ولا فى النفير . . . لا مكافأة ولا يحزنون . .

ثم مال على وهو يبتسم وقال :

ـ ألم تسمع المثل القائل : آخر خدمة النز علقة .

وكان قد خلا مكان بجواره فنظر إلى كلبه الذى كان ممددا تحت أقدامه وقال له وهو يقرقع بأصبعه . .

ـ كام هير جيمى . كام هير مای دير .

وأشار له الى المحل الخالى . فقام الكلب وبعد أن تمطى وتثاءب فى هيئة شنيعة قفز بجوار سيده والناس يرمقونه بالنظر الشزر . والتفت الى الحكيمباشى وقال وهو يلاطف كلبه . .

ـ لم أر فى حياتى كلبا وفيا كجيمى هذا . انه انسان وليس بحيوان . لقـــد استغنيت به عن البنين فهو ابنى . وعن الخدم فهو تابعى الامين . وعن الحراس فهو حارسى الذى يبذل دمه فى سبيل . أتصدق أنى لا أعاشر سواه فى منزلى .

ثم نظر الى كلبه وقال :

ـ أوه جيمى أى لاف يو فرى ماتش (١)

وكان بجوارى شيخ معمم فسمعه (يمصمص) بشفته وتمتم قائلا :

ـ لله فى خلقه شؤون !

ووقف الترام على احدى المحطات ودخل العربة محمد افندى زكريا الموظف ببنك الكومرسيال الايطالى فسلم على فى بشاشة . ثم التفت الى الحكيمباشى وقال :

ـ أهلا أسعد بك . فى غابة الأشواق يا حبيبى

وتحدثنا برهة فى العموميات . ثم رأيت أسعد بك الحكيمباشى ومحمد افندى زكريا يفتحان باب البحث فى المسائل المالية . فسكت وأصغيت لهما . وأخذا يتعمقان قليلا قليلا فلم أعد أفهم من كلامهما شيئاً . وكانت أمثال الكلمات . الكامبيو والبورصة وسندات الشركة اللجيكية وأسهم البنك العقارى والرنت الفرنساوى تطن فى أذنى طنينا مزعجا . وارتسمت على وجه أسعد بك أشد مظاهر الاهتمام فوجدت عينيه تحملقان فى وجه محدثه حملقة الجائع الشره . وخاقنى أنفه تنتفخان كأنهما تستجديان الهواء . . . وأخيرا وصلنا الجيزة فسلم أسعد بك علينا ونزل لأنه كان يسكن هذه البلدة . أما أنا ومحمد افندى زكريا فتابعنا ركوبنا الى الأهرام اذ كنا نرغب فى تناول الشاى فى (مينا هاوس) وملت على محمد افندى وقلت له .

ـ ان لصاحبك باعا طويلا فى الأمور المالية .

ـ انه يا عزيزى يلعب بالجنيهات فى سوق المضاربة كما تلعب الأولاد (بالبلى)

ـ وهل يكسب ؟

ـ لم أسمع مرة واحدة أنه خسر .

ومرت الايام وكثرت مقابلتى لأسعد بك فى القهوة وتوثقت بينى وبينه روابط الصداقة . واتضح لى أنه شخص غير مزعج كما توهمت قبل معرفتى اياه . فكان اذا رآنى فى ركنى المعهود منكبا على كتابى أذاكر درسى احترم عملى ولم يفتح فمه بكلمة . أما اذا لاحظ أننى لا عمل لى دعانى الى الجلوس معه . ولا أذكر أنه أكرمنى بفنجان قهوة . أو قدم لى سيكارة واحدة . أما حديثه فكان سخيفا ولكنه ممتع للغاية . معظمه حكايات عن حياته الماضية فى الجيش ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعا من مبالغات ومغالطات . وكان اذا تكلم عن كلبه لمعت عيناه ببريق غريب وخيل اليك أنه يتكلم عن ابن وحيد له قد وهبه كامل محبته وحنانه .

وتغيبت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت اليها فكان أول شىء لاحظته هو أن أسعد بك غير موجود . ولما جاءنى غلام القهوة سألته عنه فلم يفدنى شيئا . وبعد قليل ظهر عوبس ماسح الأحذية . وكان مسرورا يغبط بظهر ثرثته صندوقه فسألته :

ـ ما الخبر يا ولد ؟

ـ خبر عظيم جدا يا بيه . لقد أخذوا كلب أسعد بك فى عربة الكلاب .

ـ ياشيخ !

ـ شاهدت ذلك بعينى رأسى .

ونالنى شىء من الأسف . ولكننى لم أهتم بالأمر كثيرا . واعتقدت أننى سأرى فى الغد صديقى وكلبه يحتلان ركنهما المختار فى القهوة .

(١) أوه جيمى . أنا أحبك كثيرا

وبعد انقطاعي بضعة ايام ذهبت الى القهوة فوجدت أسعد بك وبحث بعيني عن الكلب فلم أجده. وكانت عيناصديقي مرتدتين حائرتين ووجهه محتقنا . وسلمت عليه فسلم علي فانتصاب وصمت فلم أشأ أن اثقل عليه . وقصدت الى مكاني وفتحت كتابي وبدأت دراستي ولكني ما كدت أفعل حتى سمعته يتكلم في لهجة شرسة كأنه يتحدى انسانا أمامه قائلا :

يأخذون الكلب ويطلبون مني جنيها مقابل اطلاق سراحه ! جنيه ! هذا نصب ، نهب ... اخص على دي مصلحة.

وبصق بصقة كبيرة . ثم أتم كلامه ...

— ... مع أني افهمتهم أني حكيم ... حكيم باشي الأورطة التاسعة التي قهرت العصاة في الأبيض ودارفور . رجل مقامي معروف وماضي مفعم بجليل الأعمال . مصلحة دون ! لا تعرف اصحاب المقامات ... اخص ..!

وبصق بصقة أخرى . وكان يتكلم بدون أن يلتفت ناحيتي . ولكني كنت متأكدا أن الكلام موجه الي اذ لم يكن في القهوة غيرنا . فرأيت من باب المجاملة أن أعير حديثه اهتمامي . وقلت :

— جميع مصالح الحكومة بايظة .

فاحتد في كلامه وهو ينظر أمامه دائما وقال :

— الا هذه المصلحة . انهـا ليست بايظة فقط . انها غير موجودة .. أتصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن الكلب غير مكلوب وأنه ليس من الكلاب الضالة ، ويقولون ان الاجراءات يجب أن تتبع مجراها . اجراءات؟ هه !... سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه الاجراءات معي ومع كلبي . سأريهم ...!

وضرب بشدة على المائدة والتفت الى هذه المرة وعيناه تشعان بالليب وقال :

— لقد أرسلت عريضة اليوم الى وزير الحربية لتخلية سبيل كلبي في الحال .. في الحال .

فأجبته على الاثر .

— حسنا فعلت .

وفي الغد سافرت مع فرقة من طلبة المدرسة في رحلة الى الصعيد . وقضينا هناك أسبوعا كاملا تتنقل بين ربوعه متفرجين على آثاره العظيمة . وفي اليوم التـالي لعودتي الى القاهرة قصدت الى قهوتي المعروفة . فرأيت عويـا جالسا القرفصاء على الارض بجوار احدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر زبائنه . فناديته وسألته على الفور .

— ماذا جرى لكلب أسعد بك ؟

فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— يعيش أنت !

— فداه ؟

— منذ أربعة أيام .

ألم يدفع أسعد بك المبلغ ؟

— يدفع المبلغ ! انه يرضى أن يدفع لهم عينه ! ولا يتجاوز لهم عن الجنيه .

وشاهدت أسعد بك آتيا صوب القهوة يتوكأ على عصاه الغليظة ويسير في ثقل واعياء . ولما اقترب مني ابتسم لي ابتسامة هزيلة وسلم علي ثم جلس . ولاحظت على وجهه شحوبا كأنه قريب العهد بمرض خبيث . وأشار الى المقعد الذي أمامه وقال :

— تفضل اجلس

جلست وبدأنا نتحادث في أمور تافهة . وكانت لهجته مهلهلة ونظراته فيها بعض الشرود . ولم يتكلم بكلمة واحدة عن جيس فعلمت أنه لا يريد الخوض في هذا الموضوع . ثم خيم علينا صمت ثقيل فاستأذنت وقصدت الى ركني .

ومنذ ذلك الحين اختلت مواعيد أسعد بك ولم أعد أراه دائما في القهوة كلما ذهبت . وغير عادته في فنجان القهوة السادة الذي كان لا يحيد عنه ولا يزيد عليه واستبدل به بضع كؤوس من العرق . وكان كلما ثارت الصهباء في رأسه اندفع يتكلم في اسهاب ممض وبصوت مرتفع كأنه يصرخ أو يشتم . وكانت موضوعاته دائما لا تخرج عن سبه مصلحة الطب البيطري وسب العالم كله على السواء . كان يقول دائما :

— الدنيـا كلها نهب في نهب . اخص بلا قرف . وبدأ يضيق على شرب الزبيب ممزوجا وقال لي :

— لا تخش ضررا . أنا حكيم . ان الزبيب مقو للدم وفاتح للشهية . أحسن المشروبات كلها .

وأصبح مجلس أسعد بك لا يطاق . فلم أكن أنعم معه بتلك المحادثات الممتعة . ولم يكن يثير كني أذاكر دروسي في هدوء . بل كان دائما يقلقني بصياحه المزعج ويضطرني الى الانصات لموتحميد كلامه . وكان اذا رآني مقصرا في الالتفات اليه جاء الى مائدتي ونقل مشروبه اليها واحتل مقعدا بجواري وبدأ يسح بشكاياته وشتائمه .

وحدث مرة أن جاء صاحب القهوة بحساب الشهر . وكان من عادة أسعد بك أن يدفع الحساب شهريا . فأخذ الورقة من يد الرجل وألقى عليها نظرة عابسة ثم صاح في وجهه :

— ماذا قرش؟ جنيه! أما الصوص صحيح ان أدفع هذا المبلغ ما حييت ودعك الرجل ومضى وما فتئ وجه صاحب القهوة يتهلل كلما أراد الأخير ان يتقاضى

معه في لطف فاقترب منه ومعه الحساب وأخذ يوضح له عدد الطلبات التي طلبها . فدفعه أسعد بك بشدة وصاح . . .

— اذهب من أمامي لن ادفع شيئا . كلكم لصوص أولاد كلب .

فاحمرت عينا صاحب القهوة وقال :

— اللصوص وأولاد الكلب ياحبيبي هم الذين لا يؤدون ماعليهم .

— اخرس ! أتعرف من الذي تكلمه ؟ أنا اسعد بك حكمداري الأورطة التاسعة في الجيش المصري .

— وماذا يهم ؟ أنا أريد نقودي . ليس هذا الجنيه كجنيه مصلحة الطب البيطري الذي لم تدفعه انقاذاً لكلبك . هذا جنيه ثمن مشروبات جررتها من محلي . . .

ورأيت سحنة أسعد بك قد انقلبت وصارت كسحنة النمر الهائج وقال وصوته يرتجف :

— ماذا تقول ياوقح ؟ جنيه الطب البيطري اجنيه الكلب ! أتظن أني قد بخلت بالجنيه في سبيل انقاذ كلبي ؟ اتجرؤ على هذا القول بالعين ؟ انا أرضى أن ادفع مائة جنيه لا جنيها واحدا من أجله . . ولكني لا ادفع للصوص اولاد حرام ، كلكم تستحقون ضرب الصرم ، ورأيته يمس يده المرتجفة في جيبه في حركة شاذة ويخرج ورقة مالية من ذات المائة قرش وينهال عليها تمزيقا في وحشية غريبة ويقول :

— أتستطيع ان تقول اني لا استطيع أن أدفع جنيها . .

ثم قام وأنشب أظافره في ورقة الرجل . وقامت بين الاثنين معركة حامية استدعيت من أجلها الشرطة .

وساءت أحوال أسعد بك فلم أعد أراه الا مخمورا رث الهيئة ممزق الملابس . قوى الشبه بهؤلاء المتشردين مدمني المخدرات الذين تراهم في الطرق يستجدون المارة . وكان لا يكف لسانه عن النقود وبالاخص عن الجنيه الذي لم يدفعه انقاذا لكلبه ، وكان يتوكد في حماس غريب أنه لم يدفع هذا الجنيه نكاية في مصلحة الطب البيطري وليفهمهم أنه ليس مفلسا أو ضعيفا . وكان يروي الحكاية لكل من يقع عليه بصره في القهوة أو في الطريق وهو يصيح ويهدد ويشتم . واذا لم يجد من يكلمه رأيته يحدث نفسه محتدا وهو يلوح بيده في حركات شاذة .

وانقلب من شحيح متكالب على المال الى مسرف متلاف لا تعرف يمينه ماتنفقه شماله . وسمعت أنه كثيرا ما يذهب الى مصلحة الطب البيطري ليفدي الكلاب الضالة ويخرج لها رخصا بمبالغ لا يستهان بها . وكان يحرضني دائما على التبذير ويقول :

— اصرف واجمع على نفسك .

وقابلت مرة محمد افندي زكريا الموظف بنيابة الكوم رسيال الابطالي فروى لي أخبارا مزعجة عن أسعد بك قال انه يضارب الآن بجنون ويخسر خسائر فادحة .

وحلت الاجازة السنوية وانقطعت عن زيارة القهوة ثلاثة أشهر كاملة . ولما عدت اليها رأيت كل شيء فيها لم يتغير . وكانت مائدتي المختارة في موضعها بجوار الجدول تظلها أغصان الشجرة العتيقة . فكأنني لم أفارقها الا منذ ثلاثة أيام . واستقبلني الوجوه التي أعرفها كل بابتسامته الخاصة . والتفت حولي مشرق الوجه وأنا أقول :

— كل شيء كما هو !

وبغتة قلت للعوبس الذي كان يمسح مقعدي في هرج وسرور وبهجة لمسح حذائي . .

— أين أسعد بك ؟

فتوقف عن عمله ورفع بصره الي وقد غابت ابتسامته وانقطع ضجيجه المرح وقال بلهجة قابضة :

— ألم تسمع عنه شيئا ؟

— كلا

— لقد أرسلوه الى المارستان . كانت حالة المسكين في المدة الأخيرة عجيبة . وكنت انا الذي أعتني به .

— ماهذا الكلام ؟

— الحقيقة ما أرويها لك

— وهل يمكن أن أزوره في المارستان ؟

وهدهد عويس صندوقه تحت قدمي وبدأ يمسح في هدوء . وقال في لهجة غريبة :

— كلا ياسيدي لا تستطيع أن تزوره . . . لن تراه أبدا . .

ونكس رأسه . . فنكست رأسي أنا أيضا وبدأت استغرق في تفكيري الحزين .

في الصيف

للدكتور طه حسين

يبيعه من اليوم شباب القرش لفائدة مشروعهم

اطلبه من جمعية القرش ٤٥ شارع عابدين تليفون ٥٧٢١٦

« ثمن النسخة ١٠ قروش وللجملة ثمن خاص »